فقهاء الدولة المرابطية

وإحراق كتاب إحياء علوم الدين للامام الغزالي

أسامة عبد الحميد حسين

قسم التاريخ/كلية التربية . سامراء/جامعة تكريت

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده ، والصلاة والسلام على خير عباده واكرم خلقه وخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ.

كانت الدولة المرابطية في المغرب تقوم على ازدواجية أحد طرفيها الفقهاء ، والطرف الآخر القبائل الصحراوية ، وهي ازدواجية تجلت في علاقة عبدالله بن ياسين بيحيى بن إبراهيم الدكالي ثم سار عليها فيما بعد أمراء المرابطين وفقهائهم ، ولا مغالاة في القول ابداً بأن دولة المرابطين دولة فقهاء،ولم تكن القبائل الصحراوية التي قامت على اكتافها الدولة ألا جهازها التنفيذي . أدى الفقهاء المرابطون دوراً اساسياً وفعالاً في توجيه السياسة المرابطية بألاتجاه الذي يرونه يتماشى ويتناسب مع اتجاهاتهم الدينية فلقد كان لهم باع طويل في اتخاذ القرارات السياسية والدينية التي كانوا يملونها على الأمير علي بن يوسف بن تاشفين والتي كان لها آثار ونتائج سياسية سلبية قد أدت إلى أفول نجم الدولة المرابطية وزوال ملكها .

كان المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للدولة المرابطية الذي كان قائماً على مبدأ منع التأويل وتفسير المتشابه من الآيات القرآنية وتحريم علم الكلام في كافة مدارس الدولة وقد اهتم هؤلاء الفقهاء بكتب الفروع (فروع الأمام مالك) إذ عملوا بمقتضاها ونبذوا ما سواها حتى تناسوا النظر في كتاب الله وسنة نبيه . كان لهذا المسار الذي سار عليه المرابطون فقهاء وساسة اثر كبير في بروز من يعارض ويصارع هذا المسار وقد تمثلت هذه المعارضة بشخص محمد بن تومرت (مؤسس الدولة الموحدية) إذ استغل هذا الصراع العقائدي ، وان كان يخبئ ورائه بلا شك صراعاً سياسياً مع فقهاء المالكية والسلطة السياسية القائمة لمواجهة الدولة وإسقاطها وتأسيس دولة يتزعمها بنفسه هي (دولة الموحدين) التي قامت على أنقاض الدولة المرابطية .

كان لفقهاء الدولة المرابطية تأثير واضح المعالم على شخصية الأمير إذ اجبروه على إصدار امراً يقضي بحرق كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي وكان لهذا الآمر اثر بارز في سقوط الدولة المرابطية كما عده أحد المؤرخين وكان أمر الإحراق هذا قد صدر بموجب فتوى من قبل الفقيه القاضي ابن حمدين قاضي قرطبة ،الان هذا الامرلم يمر دون معارضة من قبل بعض الفقهاء في المغرب والأندلس إذ ناصروا الأمام الغزالي وكتابه الإحياء .

كان ما سبق مقدمة وموجز لهذا البحث فأن جاء وافياً بالمطلوب محققاً للغاية فبعناية الله ومنه،وان جانب ذلك فحسبي أني قد اجتهدت .

تمهيد :

نجح المرابطون في حفظ البلاد من الأخطار الخارجية بواسطة الجهاد ، كما نجحوا في حفظها من التفكك الداخلي عن طريق إقرار سياسة إدارية وقظائية دقيقة ، إلا إن الوحدة الدائمة والاستقرار الحقيقي يجب أن تتوفر له شروط أخرى وذلك ما أدركه المرابطون ، فصاروا من اجل هذه الغاية يدعمون أعمال الفقهاء الرامية إلى محاربة كل ما هو خارج عن المذهب المالكي ، مذهب الدولة الرسمي .

من المعلوم إن من أسباب التفكك السياسي في بلاد المغرب العربي قبل تولي الدولة المرابطية السلطة ، وجود الخلافات المذهبية ، بل تناحر تلك المذاهب فيما بينها لاسيما في الربع الأول من القرن الثاني للهجرة إذ ((إن أفريقيا وما ورائها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى ان دخل علي بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك))[١].

يمكن أن نعد كفاح الفقهاء من اجل إقرار المذهب المالكي عقيدةً وتشريعاً ، في المغرب العربي واجهة من واجهات الكفاح السياسي العام الذي خاضته الدولة المرابطية ساسة وفقهاء ، ضد الدويلات والمذاهب التي اعترضت المذهب في مسيرته . ولما كان المذهب المالكي قد وجد في المذهب ألا شعري السلاح الذي كان ينقصه لمواجهة خصومه ، فأن كبار فقهاء المذهب المالكي اعتنقوا مذهب أبي حسن ألا شعري ويوضح القاضي عياض هذه القضية بقوله : ((فأهل السنة من المشرق والمغرب بحججه يحتجون وعلى مناهجه يذهبون)) [٢] .

ومما لاشك فيه ان تسخير الفقهاء لإمكانات الدولة المرابطية كان عاملاً حاسماً في إقرار المالكية بالمغرب بصفة نهائية ، غير ان اتصال المغرب بالأندلس ، وهي قد اختارت المذهب المالكي منذ وقت مبكر ، قد ساعد على ذلك[٣] ، وكذلك ارتباط هذا المذهب بالأصل (القرآن الكريم والسنة النبوية) ووضوح معالمه الاعتقادية وانسجامة مع عقيدة آهل السنة والجماعة ، كما ان للرحلات التي كان يقوم بها المغاربة إلى المشرق لاداء فريضة الحج والتقائهم باتباع الأمام مالك اثر بالغ في نشر هذا المذهب في بلاد المغرب فضلاً عن طبيعة المجتمع المغربي القريبة الشبه بالمجتمع الحجازي من حيث سيادة روح البداوة والالتقاء في العادات والتقاليد[٤] .

مكانة الفقهاء عند الأمير علي بن يوسف بن تاشفين :

إن فقهاء المالكية سواء في المغرب أم الأندلس شعروا أن ضروف المرحلة الجديدة تفرض عليهم مسؤوليات متعددة تحتم عليهم ان يخرجوا من رباطاتهم ، لان مهمتهم لم تعد منحصرة في الوعظ والتدريس ، بل تعد ذلك إلى الإشراف على سير قطاع واسع من قطاعات الدولة ، وهكذا اصبح الفقهاء رجال الدولة يخططون لسياستها ويتحملون مسؤولية حماية كيانها فمهمة الفقيه اذاً غدت إرشاد الأمير في سياسته العامة وتطبيق التشريع المالكي وبعبارة أخرى فقد مسك الفقهاء بأيديهم الجانب الديني والسياسي من أمور الدولة المرابطية على حدٍ سواء .

كان الفقهاء في دولة المرابطين لاسيما في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يؤدون دوراً كبيراً وملحوظاً في توجيه السياسة المرابطية ، بالاتجاه الديني الذي يعتمدونه فقد كان أمير المسلمين علي بن يوسف شديد التأثر بهؤلاء الفقهاء ، فعلى الرغم من اتصافه بالعدل والتدين والفضل إلا انه لم يكن من الحنكة السياسية والقوة ، إذ انجر ورائهم والتزم بأقوالهم وارائهم الفقهية[٥] ، ولم يأخذ نفسه بمراقبة الولاة والقضاة ومتابعتهم وتفقد تصرفاتهم ، وانسياقه هذا وراء الفقهاء دفعه إلى اقتراف عمل لم يكن عليه إن يقترفه وهو حرق كتاب (إحياء علوم الدين) للأمام الغزالي (ت : ٥٠٥ هـ)[٦] . (سيتم الحديث عن هذا الموضوع بشكل مفصل) .

كانت دولة المرابطين بعد أن مضى على قيامها وقت طويل قد بدأ الفساد يدب في أوصالها وبدأت الدعوة التي وضع أسسها عبد الله بن ياسين (ت : ٤٥١ هـ) وبناها بدمائه ودماء أعوانه من المرابطين تفقد آثرها في نفوس القوم .

انصرف الأمير علي بن يوسف عن أمور الحكم إلى الانقطاع للعبادة ، فأزداد عتو الفقهاء وسيطروا على الحياة العامة في المغرب والأندلس ، وكان بيدهم تصريف شؤون الدولة إذ كان الأمير علي بن يوسف ((لا يقطع امراً في جميع أمور مملكته دون مشاورة

الفقهاء ، فكان إذا ولى أحد من قضاته ، كان فيما يعهد إليه إلا يقطع امراً ولايبت حكومه في صغير من الأمور ولاكبير إلا بمحضر أربع من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً ...))[٧] .

إن هذا الاهتمام من قبل الأمير علي بن يوسف بالفقهاء ، كان نتيجة طبيعية لنوع العلاقة التي ربطت بينهما ، فقد كان تأسيس دولة المرابطين بإيعاز من الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين . إذ كان ((دولاب إدارتهم يدور بسواعد الفقهاء))[٨] من اتباع الأمام مالك بن انس (ت:١٧٩هـ) (رضي الله عنه) ، والذين يعتمدون على فروع هذا المذهب دون أصوله التي تتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية في استنباطهم للأحكام الشرعية ، واكتفى هؤلاء الفقهاء بتلك الأحاديث الموجودة في كتب الفروع وجعلوها مرجعهم الوحيد من غير تحفظ [٩] .

كان الأمير علي بن يوسف نتيجة لالتزامه المذهب المالكي وتبنيه فروع هذا المذهب اذ ((لم يكن يقرب أليه .. ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع ، اعني فروع مذهب مالك ، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله)) [١٠] ، وهكذا بلغ الفقهاء المالكية مبلغاً عظيماً على أيام أمير المسلمين علي بن يوسف لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس فكثرت لذلك أموالهم وانتعشت مكاسبهم ، حتى عبر عن هذا أحد الشعراء الأندلسيين بقوله :

آهل الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب ادلج في الظلام العاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الأموال بأبن القاسم
وركبتموا شهب الدواب بأشهبٍ وبأصبغ صغت لكم في العالم [١١]

كان المرابطون والمتشدقون بالفقه المالكي قد حرموا دراسة علم الكلام [١٢] ، في مدارسهم ومكاتبهم في أرجاء الدولة كافة لاسيما حاظرتهم مراكش لانه ((علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعين والمنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف و أهل السنة)) [١٣] ، وقد اخذ أولئك الفقهاء بتفسير المتشابه من الآيات القرآنية كقوله تعالى : ((إن اللذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم)) [١٤] ، كان تفسيرهم لهذه الآية الكريمة تفسيراً حرفياً ، وهم بهذا قد اتصفوا بالتجسيم القاضي بتشبيه الله سبحانه وتعالى بالبشر ، فكانوا يقفون عند ظواهر المعاني ولا يتعدونها وهذا لا يجوز [١٥] ، ((ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)) [١٦] ، وبهذا يكون الفقهاء المرابطون اعداءاً لتأويل المتشابه من الآيات القرآنية كإمامهم مالك بن انس (رضي الله عنه) الذي قال فيه الشهرستاني : ((*اما السلف اللذين لم يتعرضوا للتأويل ولا استهدفوا للتشبيه فمنهم مالك بن انس (رضي الله عنه) إذ قال : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والأيمان به واجب والسؤال عنه بدعة*)) [١٧] .

مما سبق جاءت معادات المرابطين للتأويل في المتشابه وتجسيمهم للذات الإلهية ، ومن هذا المعتقد - التجسيم – اخذ محمد بن تومرت (ت : ٥٢٤ هـ) مؤسس الدولة الموحدية التي قامت على أنقاض الدولة المرابطية الطعن في العقيدة المرابطية واخذ يعد العدة للانقضاض على السلطة المرابطية ، إذ قرن ابن تومرت المرابطين (المجسمين) باليهود والمجوس في وجوب مخالفتهم [١٨] ، محرضاً الناس على عدم طاعتهم وفقهائهم لان ولاية الأمير علي بن يوسف غير منطبقة عليهم حسب اعتقاده ولا ينطبق عليهم قوله تعالى : ((أطيعوا الله و أطيعوا الرسول واولي الآمر منكم)) [١٩] .

أن المنطلق الذي انطلق منه ابن تومرت في مواجهته لنفوذ الفقهاء وتحكمهم في أمور الدولة السياسية ،هو دراسته لعلم الأصول القائم على دراسة كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)أثناء إقامته في المشرق على يد كبار العلماء أمثال : الإمام الغزالي وأبا بكر الطرطوشي وأبا بكر الشاشي وغيرهم من اللذين اهتموا بعلم الأصول [٢٠] .

إن اصطدام ابن تومرت بالفقهاء المرابطين امراً طبيعياً اذو انهم طالما تناسوا علم الأصول وبالغوا في اهتمامهم بعلم الفروع الذي ((يقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات واحكامها والحدود والاقضية ، أو بعبارة أخرى على دراسة الجانب العملي والدنيوي من الشريعة)) [٢١] .

تمكن الفقهاء الذين ساهموا في رسم الإطار السياسي العام للسلطة المرابطية أن يؤثروا سلباً في شخصية الأمير علي بن يوسف إذ أقنعوه أن يقترف عملاً قد أخل في سمعته وسمعة الدولة المرابطية إذ أمر بإيعاز منهم عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م بأحراق كتاب(***إحياء علوم الدين***) للأمام آبي حامد الغزالي على مرأى من الناس في ساحة المسجد الجامع في قرطبة [٢٢] .

إحراق كتاب إحياء علوم الدين :

أن مسألة حرق كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي قد أثارت جدلاً علمياً بين فقهاء وعلماء المغرب والأندلس ، إذ صدرت فتوى من قبل فقهاء المغرب والأندلس متمثلة بالقاضي ابن حمدين (ت :٥٠٨ هـ) [٢٣] ، بحرق هذا الكتاب ، وقد عرضت هذه الفتوى بين يدي أمير المسلمين علي بن يوسف ونالت استحسانه وموافقته عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م [٢٤] .

نفذ أمر الحرق هذا في قرطبة على الباب الغربي من المسجد الجامع في المدينة بحضور أعيان الناس وعامتهم واخذ المرابطون يطاردون كل من يمتلك نسخة من كتاب الإحياء وامروا بتفتيش المكتبات العامة والخاصة بحثاً عنه ، أمر علي بن يوسف بمنع دخول جميع كتب الإمام الغزالي إلى بلاد المغرب العربي [٢٥] ، واصدر امراً بإنزال اشد العقوبات على من وجد بحوزته نسخة من هذا الكتاب وتحليف من أنكره بالإيمان المغلظة كالطلاق وغيره [٢٦] .

أن عملية الحرق والتفتيش التي ساندها الأمير علي بن يوسف ، ما هي إلا دليل على انقياده وراء آراء الفقهاء وسلطانهم [٢٧] ، وكذلك يدل هذا الأسلوب من أساليب التفتيش على ((الحالة النفسية التي فرضت كأنها قاعدة على أنحاء إمبراطورية واسعة لا يحرص الفقهاء فيها على التدخل في شؤون الحكومة فحسب وانما يملون أيضاً على الأمير اكثر أحكامهم))[٢٨] .

والجدير بالذكر انه كانت هناك علاقة طيبة بين الأمير يوسف بن تاشفين والإمام الغزالي حيث عزم الأخير على زيارة الأول في مراكش حاضرة الدولة المرابطية عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م وعند وصول الإمام الغزالي الى الإسكندرية جاءه نعي الأمير يوسف بن تاشفين فعدل عن رحلته الى بلاد المغرب حيث مراكش [٢٩] ، ورداً على هذه العلاقة بين الرجلين صحب الأمير علي بن يوسف صحبة العداوة والتنكر للود الكبير والاحترام المتبادل بين أبيه والإمام الغزالي فأوقد في صحون مساجد الأندلس والمغرب نيراناً كان وقودها أوراق كتاب إحياء علوم الدين .

أسباب حرق كتاب إحياء علوم الدين :

لقد حاول الباحثون أن يعللوا أسباب حرق المرابطين لكتاب الإحياء ، فقد قال صاحب كتاب أزهار البساتين : ((وكان الغزالي في نضرهم كافر لانه خلا منهم ، كان يؤول في تفسيره القرآن فمنعوا كتبه واحرقوها في مدن المغرب كله والأندلس)) [٣٠] .

اما احمد أمين فقد علل سبب ذلك الحرق بقوله : ((وكان يوسف بن تاشفين ذا نزعة دينية تخالف نزعة الغزالي ذكره منه إفراطه في الدعوة الى محاسبة النفس فأصدر قاضي قرطبة وزملاؤه فتوى بأن الغزالي مبتدع وزنديق وعلى ذلك احرقوا كتاب إحياء علوم الدين)) [٣١] .

أنني في هذا اختلف مع أمين إذ جعل عملية الحرق على عهد الأمير يوسف بن تاشفين وهذا بعيد عن الحقيقة إذ لم تذكر لنا المصادر التاريخية أن عملية الإحراق تمت في عهد يوسف بن تاشفين لانه قد توفي عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م وان عملية الحرق تمت عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م هذا فضلاً عن العلاقة الحميمة التي ربطت بين الإمام الغزالي ويوسف بن تاشفين .

اما عنان فقد دلا بدلوه فقال : ((والحقيقة أن حملة الفقهاء المرابطين على كتاب الإحياء لم تكن راجعة لأمور تتعلق بالعقيدة أو لانه يخالف الدين في شيء ، بل كانت ترجع قبل كل شيء الى ما ورد فيه من حملة لاذعة على علماء الفروع ، والتنوية بجهلهم وسخف مجادلتهم السطحية ووصف الغزالي لهم بأنهم مجانين ، وكونهم يجهلون علم الأصول الذي ينوه الغزالي بأهميته وعظيم قدره)) [٣٢] .

اما الهرفي فيقول في هذا الشأن : ((يبدو إن الإحراق يعود الى اشتداد الصراع بين المتصوفة والفقهاء ، وبما إن كتاب الإحياء قد جمع بين أحكام الورع واداب المتصوفة فقد كان خطراً على الفقهاء لانه سيرجح كفة المتصوفة ولذلك آفتي الفقهاء بإحراقه)) [٣٣] .

اما حسن إبراهيم حسن فقد علل سبب احراق الكتاب على انه كان صوفي قي روحه يسير على الفلسفة الكلامية التي ينفر منها المالكية وكذلك أن الاتجاه الفقهي في هذا الكتاب يسير على المذهب الشافعي [٣٤] .

كانت تلك هي آراء المؤرخين في سبب إحراق كتاب الإحياء فبالإضافة إلى ما ذكر من أسباب أجد أن المرابطين فقهاء وساسة قد كافحوا من اجل توحيد المغرب سياسياً ومذهبياً وترسيخ أركان المذهب المالكي محاربين في سبيل ذلك كل المذاهب التي حاولت الانتشار في بلاد المغرب والأندلس فلذلك ليس من المعقول أن يتغافل المرابطون وفقهائهم عن كتاب الإحياء لانه سوف يسبب لهم اختلاف في الآراء الفقهية التي طالما حاولوا أن تصب في إطار المذهب المالكي دون غيره ، هذا فضلاً عن أن الفقهاء المرابطون قد شعروا بأنهم المقصودون حين أشار الإمام الغزالي إلى أن علم الفقه قد نقل الى معان مذمومة وانه اصبح من علوم الدنيا لا الآخرة على أيدي بعض الفقهاء ، وخصص لمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق أسبابها واستكثار الكلام فيها ، وحفظ المقالات المتعلقة بها ، فمن كان اشد تعمقاً فيها واكثر عملاً بها يقال هو الافقه ، واصبح اسم الفقه يطلق على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية فيعد بذلك من فحول العلماء مع جهل بالتفسير والأخبار [٣٥] .

((والواقع إن هؤلاء الفقهاء كانوا بحق نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون)) . وبهذا وجد العلماء المرابطين كتاب الأحياء مرأة عاكسة تعكس لهم عيوبهم وما هم عليه من جمود فكري فوجب حرقه . على الرغم من موجة الغضب العارمة التي لحقت بكتاب الإحياء ومطاردته في مكتبات المغرب والأندلس الخاصة والعامة من قبل فقهاء

المرابطين وحكامهم ألا انه كان هناك من يعارض عملية احراق هذا الكتاب من قبل فقهاء عرفوا باعتدالهم الديني .

معارضة إحراق كتاب الإحياء :

كان في بلاد المغرب والأندلس أنصارا للإمام الغزالي وكتابه الإحياء فلذلك نجد أن عملية الإحراق هذه لم تمر دون معارضة من قل بعض فقهاء المغرب والاندلس وعامتهم ، وقد يبرز هذا جلياً عندما مدح أهل المغرب الإمام الغزالي وكتابه الإحياء بأبيات شعرية قالوا فيها :

آبا حامد انت المخصص بالحمد وانت الذي علمتنا سنن الرشد
وضعت لنا الإحياء يحيي نفوسنا وينقذنا من ربقة المارد المردى[٣٧]

وكان من جملت الفقهاء الذين وقفوا موقفاً مضاداً لإحراق كتاب الإحياء علي بن محمد الجذامي (ت : ٥٠٩ هـ) ويعرف بالبرجي وهو من آهل المرية وكان قد أتى بتأديب من يحرق كتاب الإحياء لانه مال مسلم ، وعندما علم القاضي ابن حمدين (صاحب فتوى الإحراق) بفتواه اصدر امراً بعزله عن منصبه إذ كان آنذاك مشاوراً للأحكام في مدينة المرية [٣٨] .

وكذلك من الذين ناصروا الإحياء كان أبو الفضل النحوي (ت : ٥١٣ هـ) (٣٩) ، وقد كتب لأمير المسلمين علي بن يوسف بشأن معارضته لمطاردة هذا الكتاب ، وكان النحوي قد أفتى بأن الإيمان التي فرضت أثناء عملية التفتيش عن كتاب الإحياء أيمان لا تلزم أصحابها . وقال النحوي بهذا الشأن : ((وددت أنى لم انظر في عمري سوى كتاب الإحياء))[٤٠]،وكان النحوي قد استنسخ كتاب الإحياء ثلاثين جزءاً فأذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءاً [٤١].وكذلك كان من انتصر للغزالي سيد علي بن حزرهم [٤٢] ، الذي اعتكف في بيته لقراءة كتاب الإحياء لمدة سنة [٤٣] .

أن مطاردة كتاب إحياء علوم الدين لم تكن في عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين فحسب بل تعدت ذلك العهد واستمرت المطاردة حتى عهد تاشفين بن علي بن يوسف وهذا ما أوضحته إحدى الرسائل التي ارسلها الأمير تاشفين الى أهل بلنسية والتي كانت تنص على احراق كتاب الإحياء ومما جاء فيها : ((... ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة ، وخاصة وفقكم الله ، كتب أبي حامد الغزالي ، فليتتبع أثرها ، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ويبحث عليها ، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها)) [٤٤] .

رغم تأكيد واتفاق اغلب المؤرخين القدامى على ما جرى لكتاب الإحياء إلا أن بعضهم يشك في صحة هذه الرواية وينسبوا عملية الحرق إلى الموحدين اتباع ابن تومرت،على إنها من ابتداعهم بقصد التحمل على المرابطين وفقهائهم ، ومن اجل ربط اسم ابن تومرت بأسم الإمام الغزالي [٤٥] .

ذكرت المصادر أن من اخبر الإمام الغزالي بالعمل الذي اقترفه المرابطون هو ابن تومرت عندما التقى به في بغداد عند رحيله من بلاد المغرب الى المشرق حيث بغداد مأوى الإمام الغزالي آنذاك طلباً للعلم حسبما يذكر لنا بعض المؤرخون [٤٦] ، إذ تقول الرواية التي أدلى بها صاحب الحلل الموشية : ((.... كنت ببغداد بمدرسة الشيخ أبي حامد الغزالي ، فجاءه رجل كث اللحية على رأسه كرزية صوف ، فدخل المدرسة واقبل على الشيخ أبي حامد فسلم عليه ، فقال : ممن الرجل فقال : من أهل المغرب الأقصى . قال : أدخلت قرطبة

؟ ، قال : نعم . قال : كيف فقهائها ؟ قال : بخير . قال : هل بلغهم كتاب الإحياء ؟ قال : نعم . قال : فماذا قالوا عنه ؟ فصمت الرجل حياء . فعزم عليه ليقولن ، فأطرق رأسه واخبره بإحراقه وبالقصة كما جرت ...)) [٤٧] .

يبدو أن الخبر الذي اخبره ابن تومرت للإمام الغزالي قد أثار غضبه على السلطة المرابطية وفقهائها الأمر الذي أدى بالإمام الغزالي أن يدعو الله تحرقاً منه بزوال ملكهم وافول دولتهم حيث قال عندما سمع ذلك : ((اللهم مزق ملكهم كما مزقوه واذهب دولتهم كما احرقوه ...)) [٤٨] .

بعد إن دعى الإمام الغزالي من الله تعالى بتمزيق ملكهم وزوال دولتهم أثناء حضور ابن تومرت مجلسه إذ طلب منه - ابن تومرت - أن يكون ذلك على يده اذ قال : ((... أيها الإمام ادع الله أن يجعل ذلك على يدي ...)) [٤٩] ، فأيده بذلك [٥٠] . من هنا صمم ابن تومرت بالعودة الى بلاده (المغرب) بعد أن اكتسب علماً على علمه على يد الإمام الغزالي ، اعتقاداً منه بأن المغرب بأمس الحاجة الى شخص مثله ، كي ينقذ المغرب من العقيدة القائمة على منع التأويل ويصرف الناس عن المذهب المالكي الذي يسود المغرب [٥١] .

ما إن عاد ابن تومرت الى بلاد المغرب حتى اخذ يهاجم المرابطين فقهاء وساسة محرضاً عامة الناس عليهم بأنهم أوناس مجسمون لذات الله تعالى لا يرجعون الى الأصول معتمدين علىالفروع ، ونتيجة لهذا التف حوله الكثير من أهل المغرب [٥٢] ، إذ أوغر قلوبهم على الفقهاء والسلطة الحاكمة طارحاً أمامهم حادثة إحراق كتاب الإحياء والجمود الفكري الذي كانوا عليه آنذاك .

ومن هذا المنطلق الذي انطلق منه ابن تومرت في مواجهة الدولة المرابطية تمكن من زعزعة أركان الدولة ومن ثم وبمرور الوقت تمكن هو واتباعه من بعده من الموحدين من
إسقاطها ، إذ أن الفتوى التي صدرت بشأن حرق كتاب الإحياء لها الوقع الكبير في أفول نجم المرابطين وزوال ملكهم حتى عد المؤرخ ابن القطان حادث الإحراق سبباً لسقوط دولة المرابطين [٥٣] .

وبهذا العمل الذي اقترفه الأمير علي بن يوسف وفقهاء الدولة أصيبت سيرة الدولة المرابطية بشائبة لايمكن أن يغفر لها التأريخ إذ لم يكن لديهم المبررات الكافية والمقنعة لاقترافهم هذا العمل فان هذه الحادثة أن دلت على شيء فأنما تدل على تأخر الفكر المغربي في عهد المرابطين لاقتصارهم على الفكر المالكي الذي لا يقبل التأويل .

ونتيجة لكل ما سبق ابتعد المرابطون وفقهائهم عن الحركة الفكرية المستنيرة ، لاسيما عند مطاردتهم لكتاب الإحياء وحرقه ، ومبالغتهم وعنايتهم بكتب الفروع ، إذ عملوا بمقتضاها ونبذوا ما سواها ، وهذا الابتعاد عن كتاب الله والتمسك بمذهب الإمام مالك وفروعه يعد في رأيي عاملاً من عوامل ضعف الدولة وأميرها علي بن يوسف ، وهذا العامل لايقل شأناً عن العوامل الأخرى التي ساهمت في ضعف الدولة ومن ثم سقوطها .

الخاتمة :

بعد أن تم هذا البحث بحمد الله وشكره على هذه الصورة لابد لي أن أسجل خاتمة أبين فيها أهم الاستنتاجات التي توصلت إليها والتي كانت مثار جدل وحوار مختلف بين المؤرخين :

- من خلال الاطلاع على الضروف التي أحاطت بالدولة المرابطية تبين إنها كانت واقعة تحت تأثير سلطة الفقهاء وإنها كانت لا تتخذ قراراً إلا بحضور الفقهاء وعليه فأن دولاب إدارتهم كان يدور بسواعد الفقهاء .

- كان للفقهاء اثر كبير على شخصية أمير المسلمين علي بن يوسف إذ لم يكن يقرب إليه إلا من علمَ علم فروع الأمام مالك ، وقد أملوا عليه قرارات خطيرة على المستوى الديني لاسيما إحراق كتاب (إحياء علوم الدين) ، وكان لامر الإحراق هذا نتائج خطيرة على المستوى السياسي إذ استغل ابن تومرت هذه الحادثة وانطلق من خلالها ومن خلال اقتصار أفكار الفقهاء على فروع الفقه المالكي يحارب السلطة المرابطية .
- اثبتنا في هذا البحث إن عملية إحراق كتاب إحياء علوم الدين من قبل السلطة المرابطية كانت شائبة أصابة سيرة الدولة المرابطية إذ لم يكن للفقهاء والسلطة الحاكمة مبررات للقيام بهذا العمل لاسيما وان الدولة العربية الإسلامية لم يسبق لها إن حجرت على العقل البشري رغم الاختلاف الحاصل بين الفقهاء في آرائهم الفقهية .

قائمة المصادر :

١. عياض ، القاصي أبو الفضل (ت : ٥٤٤ هـ) : ترتيب المدارك ، نشر وزارة الأوقاف، (المغرب، ١٩٥٥) ، جـ ٥ ، ص ٦١ .
٢. عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٥ ، ص ٥٧ .
٣. شقور ،عبد السلام : القاضي عياض الأديب ، نشر دار الفكر المغربي ، (طنجة ، ١٩٨٣) ، ص٢٢.
٤. بنشنهو ، عبد الحميد بن أبي زيان : النظام الإداري بالمغرب ، مطبعة الرسالة ، (الرباط ، ١٩٦٢) ، ص ٢٠-٢١ ؛ شقور : القاضي عياض ، ص٢٢ .
٥. المراكشي ، عبد الواحد (ت : ٤٦٧ هـ) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ضبطه وحققه : محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة ، (القاهرة ، ١٩٤٩) ، ص١٧١ ؛ شلبي ، احمد : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ط ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة ، ١٩٦٦) ، جـ ٤ ، ص ١٨٣ .
٦. ابن القطان ، علي ابن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي : نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان ، تحقيق : محمود علي مكي ، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ،المطبعة المهدية ، (تطوان ، د. ت) ، جـ ٦ ، ص١٥ ؛ عنان ، محمد عبد الله: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة ، ١٩٦٤) ، جـ ١ ، ص٧٩ .
٧. المراكشي : المعجب ، ص١٧١ ؛ أمين ، احمد : ظهر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة ، د. ت) ، جـ٣ ، ص٣٨ .
٨. الفاسي ، عبد الرحمن : خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين ، مجلة المناهل ، العدد ٢١ ، (الرباط ، ١٩٨١) ، ص٢٧ ؛ الجراري ، عباس : التيار الفقهي المرابطي ، مجلة دعوة الحق ، العدد ٤ ، الرباط ، ١٩٧٤) ، ص٣٢ .
٩. سالم، السيد عبد العزيز:المغرب الكبير،دار النهضة العربية للطباعة والنشر،(بيروت ،١٩٨١)، جـ ٢ ، ص٧٤٣ ؛ عبد البديع ، لطفي الإسلام في إسبانيا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، المكتبة المصرية ، (القاهرة ، ١٩٥٨) ، ص٤٣ ؛ صبحي ، احمد محمود : في علم الكلام ، ط ٤ ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، مصر (الإسكندرية ، ١٩٨٢) ، ص١٧٢ .
١٠. المراكشي : المعجب ، ص١٧١ ؛ زغلول ، سعد : محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس ، منشورات جامعة بيروت العربية ، (بيروت ، ١٩٧٣) ، ص١٤ .

١١. المراكشي : المعجب ، ص١٧١ ؛ زغلول : محمد بن تومرت وحركة التجديد ، ص١٤ ؛ أمين : ظهر الإسلام ، جـ٣ ، ص١٥٢ .
١٢. صبحي : في علم الكلام ، ص١٧٢ .
١٣. ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت : ٨٠٨ هـ) : المقدمة ، تحقيق : حجر عاصي ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، (بيروت ، ١٩٨٦) ، ص٢٩ .
١٤. سورة الفتح : أية ، ١٠ .
١٥. الريحاني ، أمين : المغرب الأقصى ، دار المعارف للطباعة والنشر، (مصر ، ١٩٥٢) ، جـ٢ ، ص٣٦٢ ؛ عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ، ص٤٤ .
١٦. سورة الشورى : آية ، ١١ .
١٧. لشهرستاني ،أبي الفتح محمد بن عبد الكريم(ت : ٥٤٨ هـ) : الملل والنحل ، صححه وعلق عليه : احمد فهمي محمد ، مكتبة الحسيني التجارية ، (القاهرة ، ١٩٤٨) ، جـ١ ، ص١٢٥ .
١٨. ابن تومرت ، محمد بن عبد الله (ت : ٥٢٤ هـ) : اعز ما يطلب ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، (الجزائر ، ١٩٨٥) ، ص٢٤٧ .
١٩. سورة النساء : آية ، ٥٩ .
٢٠. ابن القطان : نظم الجمان ، جـ ٦ ص١٢ ؛ الجراري : التيار الفقهي المرابطي ، ص١٢٣ .
٢١. عنان : عصر المرابطين والموحدين ، جـ ١، ص١٧١ .
٢٢. ابن عذاري ، أبو العباس احمد بن محمد المراكشي (ت: ٧١٢ هـ) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، كتب التعليقات : إحسان عباس ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، (بيروت ، ١٩٦٧) ، جـ ٤ ، ص٥٩ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، جـ ١ ، ص٧٩ .
٢٣. هو محمد بن علي بن عبدالعزيز بن حمدين التغلبي، وهو قاضي الجاعة بقرطبة يكنى أبا عبدالله، وكان من أهل العلم حافظاً ذكياً أديبا شاعراً . وقد تولى القضاء في قرطبة عام ٤٩٠ هـ ، وقد توفى عام ٥٠٨ هـ . ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت : ٥٧٨ هـ) : كتاب الصلة ، تحقيق: ابر أهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني ، (بيروت ، ١٩٨٨) ، جـ٣ ،ص٨٣١؛ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ٤ ، ص٥٩ .
٢٤. مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق : سهيل زكار وعبدالقادر زمامة ، دار الرشاد الحديثة ، مطبعة النجاح الجديدة ،(الدار البيضاء ، ١٩٧٩) ، ص١٠٤ ؛ ابن القطان:نظم الجمان ، جـ ٦ ، ص١٤ ؛ ابن زيدان ، عبدالرحمن : إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، المطبعة الوطنية ، (الرباط ، ١٩٢٩) ، جـ ١ ، ص٨٨ .
٢٥. بروفنسال ، ليفي : الإسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة: السيد محمود عبدالعزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، مراجعة ، لطفي عبد البديع ، مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر ، (القاهرة ، ١٩٩٠) ، ص٢٥٣ .
٢٦. ابن القطان : نظم الجمان ، جـ ٦ ، ص١٤-١٥ ؛ ابن أبي دينار ، أبو عبدالله محمد بن القاسم القيرواني(ت : ١١١٠ هـ) : المؤنس في أخبارا أفريقيا وتونس ،ط ٢ ، تحقيق : محمد شمام (تونس ، ١٩٦٧)، ص١١١ ؛ صبحي : في علم الكلام ، جـ٢ ، ص١٧٣ .
٢٧. الجراري : التيار الفقهي المرابطي ، ص١٢٤ .
٢٨. بروفنسال : الإسلام في المغرب والاندلس ، ص٢٥٣ .

٢٩. ابن أبي دينار : المؤنس ، ص١١٠ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، جـــ ١ ، ص٧٨ .
٣٠. طارو، جان وجيرام:أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمــغرب على عهد المرابطين
٣١. والموحدين،ترجمة وتعليق:احمد ملا فريح ومحمد الفاسي،المطبعة الوطنيــة،(الربــاط ، ١٣٤٩ هــ) ، ص١٠٠ .
٣٢. امبن : ظهر الإسلام ، جـــ٣ ، ص٣٧ .
٣٣. عنان : عصر المرابطين والموحدين ، جـــ ١ ، ص ٧٩ .
٣٤. الهرفي ، سلامة محمد سلمان : دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، دار الندوة الجديدة ، (بيروت ، ١٩٨٥) ، ص ٣٢٦ -٣٢٧ .
٣٥. حسن ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتمــاعي ، مكتبــة النهضة العربية المصرية ، (القاهرة ، ١٩٦٧) ، جـــ ٤ ، ص ٤٥٦ .
٣٦. الغزالي ، الإمام أبو حامد محمد بن محمد (ت : ٥٠٥ هــ) : إحياء علوم الــدين ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، (بيروت ، د. ت) ، جـــ ١ ، ص ٢٨ .
٣٧. صبحي : في علم الكلام ، جـــ ٢ ، ص ١٧٣ .
٣٨. الزبيدي ، محمد الحسيني (ت : ٣٧٩ هــ) : إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علــوم الدين ، دار الفكر للطباعة والنشر ، (بلا ، د. ت) ، جـــ ١ ، ص ٣١ .
٣٩. ابن الآبار ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضائي (ت ٦٥٩ هــ) : المعجم في أصحاب القاضي الصدفي ، تحقيق : إبراهيم الابياري ، دار الكتاب اللبناني ، (بيروت ، ١٩٨٨) ، ص٢٧٨ ؛ كنون ، عبدالله : النبوغ المغربي في الأدب العربــي ، ط ٢ ، دار الكتــاب اللبناني للطباعة والنشر، مكتبة المدرسة ، (بيروت ، ١٩٦١) ، جـــ ١ ، ص٧٠ .
٤٠. هو احمد بن عبد الســيد بن علي النحوي البغــدادي ، ويكنى أبو الفضل ، وكان أديبا له معرفة بالأدب والنحو وهو من قلعة بني حماد . القفطي ، الوزير جمــال الــدين أبــي الحسن علي بن يوسف : أنباه الرواة على أبناء النحاة ، تحقيق : محمــد أبــو الفــضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، (القاهرة ، ١٩٥٠) ، جـــ ١ ، ص٨٧ .
٤١. التادلي، أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى (ت : ٦٢٨ هــ) : التشوف الى رجــال التصوف، اعتنى بنشره وتصحيحه: أد ولف فور ، مطبوعات أفريقيا الــشمالية الفنيــة،(الرباط ، ١٩٥٨) ، ص ٧٣-٧٤ .
٤٢. التادلي : التشوف الى رجال التصوف ، ص ٧٣ .
٤٣. هو أبو الحسن سيد علي بن حزرهم ، كان قد رحل الى المشرق أقام فترة في الشام،فألتقي هناك بالإمام الغزالي ثم رجع الى مدينة فاس ومات فيها . التادلي : التشوف الى رجال التصوف ، ص٧٣ .
٤٤. ابن الآبار: المعجم في أصحاب القاضي الصدفي ، ص٢٧٨؛ شقور : القاضي عيــاض ، ص٤٧ .
٤٥. مؤنس ، حسين : نصوص سياسية عن فترة الانتقــال من المرابطين الى الموحــدين ، مجلة المعهد المصري ، العدد الأول ، المجلد الثالث ، (مدريــد ، ١٩٥٥) ، ص١١٠-١١٣ .
٤٦. ابن أبي دينار : المؤنس ، ص١١١ .
٤٧. ابن أبي زرع ، أبو الحسن علي بن عبدالله الفــاسي (ت : بعد ٧٢٦ هــ) : الأنــيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنــصور للطباعة ، (الرباط، ١٩٧٢) ، ص١١٨ ؛ القلقشندي ، أبو العباس احمد بن علي (ت :

٨٢١ هـ) : مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق : عبد الستار احمد فـراج ، وزارة الإرشاد والأنباء ، (الكويت ١٩٦٤) ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ .

٤٨. مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٠٥ .

٤٩. مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٠٥ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، جـ ٦ ، ص ١٧ .

٥٠. ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ٤ ، ص ١٣٧ ؛ مجهول : الحلل الموشـية ، ص ١٠٥ .

٥١. مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٠٥ .

٥٢. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ، جـ ٤ ، ص ٢٩٥ .

٥٣. ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٤٩ .

٥٤. ابن القطان : نظم الجمان ، جـ ٦ ، ص ١٥ .